المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص94-106

مقاربة تاريخية للمؤلفان لاكتانتيوس وأغسطينوس من خلال كتابيهما "النظم الإلهية" و"مدينة الله"

A historical approach by the authors Lactantius and Augustinus through their books "The Divine Systems" and "The City of God"

العمري عبد النور
جامعة المدية (الجزائر)
Proflamri213yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/03/03
تاريخ القبول:
2022/03/23

الكلمات المفتاحية:
- ✓ لاكتانتيوس
- ✓ أغسطينوس
- ✓ الفكر المسيحي
- ✓ الكتابة والتأليف

الملخص:

التاريخ المغاربي القديم حافل بشخصيات علمية ودينية وأدبية كان لها أثر عظيم في الفكر الإنساني، وأغلبهم كتبوا باللغة اللاتينية، من هؤلاء مفكران متصوفان وعالما دين مسيحيين ذوي أصول مغاربية إفريقية وهما لاكتانتيوس كايسلوس فرميانوس الذي اشتهر بمؤلفه الشهير في العالم المسيحي وهو موسوعة "**النظم الإلهية**" التي كان لها تأثير كبير على فكر العصور الوسطى وعصر النهضة فيما بعد. وأيضا القديس أغسطينوس صاحب مؤلف "**مدينة الله**" ذو التأثير الكبير في الفكر والثقافة المسيحية. وفي هذا العمل سأحاول تقديم مقاربة تاريخية لكلا المؤلفان ومعرفة مدى ما حملته هذه الأعمال لأهدافها من ايجابيات ونقائص ومقاربات.

Article info

Received:
03/03/2022
Accepted:
23/03/2022

Key words:
- ✓ Lactantius
- ✓ Augustinius
- ✓ Christian thought
- ✓ writing and authorship

Abstract:

The history of the ancient Maghreb is full of scientific, religious and literary figures that had a great influence on human thought, and most of them were written in Latin. Among these are two mystical thinkers and researchers of Christian theology of Afro-Maghreb origin, Lactantius Caecilius Firminus, who is best known for his famous author of the Christian world, The Encyclopedia of "Divine Systems", which had a great influence on medieval and later Renaissance thought. Also, the book "The City of God" by St. Augustine, this book had a great influence on Christian thought and culture. In this work, I will try to present a historical approach to both authors and to know the positives and shortcomings that these works carry to achieve their goals.

مقدمة

خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد انتشرت المسيحية في جميع الشرائح الاجتماعية لحوض المتوسط، واستهوت أوساط الأدباء ورجال الدين والمعلمين والمفكرين الأفارقة، فاكتسب الأدب اللاتيني نوعا جديدا نشأ في مدن متوسطية كبيرة مثل قرطاجة، ثم انتشر في المقاطعات الرومانية. وأصبح منذ نهاية القرن الثاني صيت شخصيات مثل ترتوليانوس Tertullianus التي بفضله تعززت حركة الدعوة للمسيحية والرد على الوثنيين، ثم ظهر بعده كيبريانوسCyprianus وأرنبيوسArnobius، ثم لاكتانتيوس Lactantius وأغسطينوس وإشعاعهما على الفكر المسيحي إلى اليوم. وما يهمنا في هذا الموضوع اشاكاليتنا المطروحة حول المفكران والعالمان الأخيران "**لاكتانتيوس وأغسطينوس**" في مقاربة بين أشهر كتبهما "**النظم الإلهية ومدينة الله**". والتي سنحاول الإجابة عنها عبر تقريب الرؤى العلمية والمنهجية للمؤلفين.

1. سيرة موجزة عن المؤلفان والعالمان الإفريقيان لاكتانتيوس وأغسطينوس

1.1. سيرة وأعمال لاكتانتيوس

1.1.1. شخصية لاكتانتيوس كايسلوس فرميانوس

ولد بمقاطعة نوميديا عام 250 ميلادية. وترعرع وتعلم في ضل الصراع بين الوثنية وانتشار المسيحية، ثم أصبح خطيبا وفيلسوفا وكاتب ورجل دين من علماء الدين المسيحيين الأفارقة، ألف كتب متنوعة قبل وبعدد دخوله في المسيحية. عايش أبشع اضطهادات السلطة الوثنية ضد المسيحيين، كان له معرفة واسعة بالآداب الإغريقية واللاتينية، لكنه كتب فقط باللاتينية وأصبح معلما وخطيبا في إفريقيا لمدة طويلة. نال نجاحا كبيرا، فدعاه الإمبراطور دقلديانوس إلى نيقوميديا، مرفوقا بفلافيوس عالم النحويات، ليُدرسا البلاغة والخطابة اللاتينية، ولكنه لم يوفق، إذ أنه لعدم وجود تلاميذ، ولكونها مدينة ذات ثقافة إغريقية، انصرف للكتابة، لكنه ظل أستاذا هناك إلى أن انتشر اضطهاد المسيحيين سنة 303م، فترك منصبه لأنه صار مسيحيًا، ورحل ما بين عام 305 وعام 306م (انطوان، 1992، ص 07).

تخلى عن مهامه كخطيب سنة 303م، وتفرغ لكتابة مؤلفه الأساسي "**النظم الإلهية**" الذي كتبه في نيقوميديا أثناء الاضطهاد الوثني وتهديم كنيسة المدينة، إذ بدأ لاكتانتيوس يكتب في هذه الأثناء ليرد على نصوص مجادلة معادية للمسيحية (Jérome, 2010, chap, p10). الأمر الذي يؤكد معرفته للمسيحية واطلاعه المبكر للإنجيل، وأن شعوره الفكري بالفلسفة والعقائد (Alban, 1944, pp 79-81). يرجع لسنواته بإفريقيا، كما يطرح اعتقادا دخوله المسيحية واعتنقها في السر، ولم يكشف ذلك إلا مع بداية عام 303م.

عاش لاكتانتيوس نقطة تحول رئيسية بين تاريخ الاضطهاد العنيف الذي أطلقه دقلديانوس ضد المسيحيين وفترة "**سلام الكنيسة**" باعتناق قسطنطين المسيحية (Monat, 1993, p48). عاد لنيقوميديا سنة 311م، ومنها دعاه الإمبراطور قسطنطين الكبير لترافس حوالي 317م (Digiser, 1996, pp10-15). وهو طاعن في السن ليصبح معلم ومهذب ابنه الأكبر "**القيصر كريسبوس**" (انطوان، 1992، ص 08). وتوفي

المجلة التاريخية الجزائرية AHJ
The Algerian Historical Journal
EISSN: 2716-9065 / ISSN: 2572-0023

سنة 325م، وكان حتى ذاك خطيبا بارزا قريب من دوائر السلطة. ففي زمن قسطنطين أصبح ينعم بقوة عصره. إذ تم الاعتراف به سريعا كسلطة من قبل القديسين أوغسطينوس وجيروم وآخرين، فقط البابا جيلاسيوس من رفض إدراجه ضمن عدد آباء الكنيسة (Monat, 1993, p47).

2.1.1. التأليف والكتابة عند لاكتانتيوس

بمعرفته الجيدة اللغة اللاتينية فإنه استخدم على نطاق واسع مؤلفات فلاسفتهم وشعرائهم، مثل أوفيد ولوكريشيا وسينيكا. وبالأخص الشاعر فيرجيل والخطيب شيشرون.. كما دعا إلى إعادة قراءة المؤلفين الوثنيين من منظور جديد. لأن الوثنية وفقا لأفكاره هي تحريف للفلسفة التي هي اختراع من العقل البشري، وسيكون استبدالها بإعادة معرفة الله من الجميع الذين سيصلون بالتالي إلى السعادة (Monat, 1993, p50). ومن خلال بحثنا عن مؤلفات لاكتانتيوس لاحظنا بأنه لم يحتفظ بأعماله فترة الوثنية، رغم كثرتها وتنوع ميادينها- وربما تعمد بعضهم إتلافها بتعصب ديني مسيحي مع الوقت بعضها كتب بنوميديا، التي كانت مكانا لميلاد أول أعماله كتبها عندما كان شابا صغيرا وهي "**الوليمة**" والتي فُقدت (Jérome, 2010, chap, 80). وبعضها نيقوميديا، في "**النحو**"، والفلسفة والشعر، والرسائل. أما نشاطه الأدبي فيبدأ مع:

- كتاب "**الإله الخالق**" de opificio dei (303-304م)، ألفه خلال اضطهادات الإمبراطور دقلديانوس وهو مرسل لأحد مستمعيه المسيحيين وأحد تلاميذه ديميتريانوس الثري. (انطوان، 1992، ص 09) وموجه أيضا للقراء الوثنيين.(Monat, 1993, p48)

- كتاب "**الطائر العنقاء**" de ave phonice (303-304م)، قصيدة شعرية رثائية من أسطورة وثنية.

- كتاب غضب الله de ira dei بين (313-314م) (Jeffrey, 2016, chap, 1,2..): ألفه للتصدي لفلاسفة مذهب انغماس الملذات.

- كتاب موت المضطهدين de moritibus persecutorum (314-316م) (Adam, 1989, pp 92-98): رسالة هجاء كتبه بعد نهاية الاضطهاد وانتشار السلام، جاء فيه نتائج الغضب الإلهي وعقاب مضطهدي المسيحية والكنيسة (Allard, 1903, pp 543-552; De Decker, 1970, pp 941-942).

- الأعمال المفقودة ومنها: الوليمة أو المأدبة، دليل الرحلة وقد ذكره جيروم في "**مشاهير الرجال**" وهو وصف لرحلة لاكتانتيوس من إفريقيا إلى نيقوميديا. أيضا يشير القديس جيروم إلى كتاب في قواعد النحو، وأيضا تحدث عن كتابين إلى اسكليبيادس وأربعة كتب منها "**رسالتين إلى تلميذه ديمتريانوس**".

- مؤلف "**النظم الإلهية**" divinae institutiones: أو "**القوانين الإلهية**" تقع في سبع كتب تمثل عمل لاكتانتيوس الأساسي. وسنعرج عليها بالتفصيل والدراسة لكونها صلب البحث وجوهره.

والنظم الإلهية تنقسم إلى سبعة أقسام أو كتب وهي:

- "**دين الزيف**" de falsa religione، أو "**العبادة الكاذبة للآلهة**" هدف مؤلفه ليكون ضد الشرك وعبادة آلهة متعددة، ولها هدفان: إثبات كذب وخرافة الديانة الوثنية وأفكارها. وتقديم العقيدة الصحيحة.

– "**أصل الخطأ**" de origine erroris: يفسر أن الاعتقاد بالآلهة الوثنية أوجدتها شياطين الشر من الروحيين، ويشجب فيه تعدد الآلهة كمصدر كل الأخطاء والخرافات، وعلى أن هؤلاء الذين يعبدهم اليونانيون والرومان، هم أشخاصا بسطاء عاديين ثم أُلِهوا، ومفهوم الألوهية نفسه يوجب وجود إلها فقط.

– "**زيف الفلاسفة**" de falsa sapienta أو "**حكمة الفلاسفة الكاذبة**" كتبه ضد الفلاسفة المناقضين بعضهم، واعتبارهم ثاني مصدر للخطأ بعد تعدد الآلهة، ويشرح أن هناك تناقضات في الآراء الفلسفية المتنوعة بخصوص أسئلة جوهرية عن الحياة البشرية، وأن المعرفة الصحيحة تعطى فقط بالاستعلام.

– "**الحكمة والديانة الحقيقية**" de vera sapienta et religione: يشرح فيه أن المسيح أعطى البصيرة الحقيقة أو "**الفكرة الصحيحة**" عن الألوهية، والحكمة والديانة لا ينفصلان، وأن المسيح جاء إلى المعمورة ليعلم الإنسان الديانة الحقيقية، استنادا على روايات الكتاب المقدس.

– "**العدالة**" de justitia: وفيه يرى لاكتانتيوس أن أهم فضيلة هي العدل، ولأن الوثنية ألغت العدل، فتقوى الله بين الجميع تبنى على المساواة التي يرغب الله أن تكون، فليس هناك عبد ولا سيد، وملخص الكتاب أن العدالة والرحمة من جهة الشهداء أو المسيحيين، والمضطهدون أناس جائرون مدنسون.

– "**العبادة الحقيقية**" de vero culto: يتناول ديانة وأخلاق المسيحية وواجباتها لله والرحمة تجاه الناس.

– "**الحياة السعيدة**" de vita beata: وفيه وصفا تفصيليا للذين ارضوا الرب بأعمالهم الصالحة وعبدوا الله الواحد، إذن تختم المجموع، الخلود والسعادة الأبدية، وجزاء الأتقياء، تعويض للفضيلة الدنيوية.

ما بين سنوات 315 و320م، واصل لاكتانتيوس كتابة ملخص النظم، حسب الاهتمامات السياسية والدينية آنذاك، يزيل ويعدل تأكيدات معينة لتوضيح مواقعها السابقة، ونتيجة لذلك، يختصر أو ينسى قضايا رآها أقل أهمية. ومع سنة 320م أكمل مع الموجز epitomae ملخص "**النظم الإلهية**" المهداة للإمبراطور قسطنطين الأول، وهو نفسه نسخة مبسطة ومنقحة. كما حضر سنة 324م طبعة جديدة من النظم حيث ظهرت مظاهر "**التثنية**" في تفكيره بوضوح، لكن الطبعة لم تنته، ربما بسبب وفاته سنة 325م.

ففي بعض المخطوطات، نجد "**ملخص**" ملحق بالنظم الإلهية، وقد أعده لاكتانتيوس لـ "**الأخ بنتاديوس**" ومن محتويات هذا الملخص يتضح لنا أنه ليس جزء من العمل الأصلي بل نسخة مختصرة منه، وفيه إضافات وحذف وتغييرات وتصحيحات، ويحتمل أنه كتبه بعد سنة 314م، ولم يكتشف النص الكامل للملخص إلا بداية القرن 18م في مخطوطة تعود للقرن 07م، وكل النسخ الأخرى تقدم هذا العمل في صورة غير كاملة.

3.1.1. عرض ودراسة موسوعة "النظم الإلهية"

بدأ لاكتانتيوس في كتابه "**القوانين الإلهية**" نحو عام 304م بعد فترة وجيزة من الانتهاء من عمله "**صنعة الله**"، والذي يشير إليه كعمل حديث، ولابد أن الكتاب السادس قد كُتب قبل صدور منشور جاليريوس سنة 311م، والإهداء إلى قسطنطين في الكتاب السابع يدل على صدور منشور ميلان سنة 313م، وفي عدد قليل

من المخطوطات، والبعض الآخر يتضمن مديحا موجه للإمبراطور قسطنطين، ويبدو أن لاكتانتيوس نفسه هو الذي أضاف هذه الصفحات.

اعتبر هذا العمل الموسوعي أول محاولة لاتينية لتقديم ملخص للفكر المسيحي، في سبعة كتب.

تم تأليفهم في بداية القرن الرابع الميلادي.

حيث قدم فيها كاتبهم لاكتانتيوس الديانة المسيحية كعقيدة نجاة.

الموسوعة تعتبر كمرافعة استدعتها اضطهادات السلطة الرسمية الوثنية الحاكمة ضد المسيحيين.

عمل جاهدا لإقناع الوثنيين بحججهم نفسها فلم يكن يستخدم اقتباسات الإنجيل إلا نادرا.

حافظ لاكتانتيوس على مؤلف النظم الإلهية حتى النهاية الذي يتوافق مع طموحه الكبير كأهم من الأعمال الأخرى، وعنوانها كاف للإشارة إليه، فلاكتانتيوس اقترح قيادة النخبة المثقفة إبان عصره، فهو الذي قرأ الفلاسفة، والشعراء وحتى فقهاء علم المسيحية وممارستها (Monat, 1993, p49).

تم ترتيب تكوينه للنظم الإلهية، بتفصيل وبمهارة، فلا يمكن فهم النظم ببراعة قبل إلقاء نظرة على الأعمال بأكملها. فالكتب السبعة التي كوّنها لاكتانتيوس على التوالي: الدين الباطل، أصل الخطأ، الفلسفة الكاذبة، الحكمة الحقيقية والدين الحق، العدل، الحق العبادة، وأخيرا السعادة، في المجموع، ثلاثة كتب دحض وأربعة عرض. فثلاثة كتب الدحض مفعمة بالحيوية بشكل رائع، يعرف خلالها المجادل بذل جهد لفهم وشرح موقف الخصم، والبحث عن التوافق بين اللاهوتيات التي تواجه بعضها البعض. إنه ذلك الجزء الاعتذاري الذي أعجب به القديس جيروم قبل كل شيء، قبل أن يستنكر ضعف الكتب التالية (Monat, 1993, p 50).

صحيح أن الموضوع كان في ذلك الوقت أكثر صعوبة خاصة وأن لاكتانتيوس في منتصف عمره عندما قدم لاهوتا عقلانيا ومتماسكا للتجسيد قبل توضيحات وقرارات مجلس نيقيه (325م)، ومن خلال ابتعاده غالبا عن كتابات العهد الجديد فكان نوعا من التحدي منه. فكانت بالتأكيد جديرة بالثناء لكنها غير كافية تماما.

4.1.1. الإطار المنهجي والعلمي لموسوعة النظم الإلهية (في إيجاز)

سعى لاكتانتيوس للتوفيق بين المسيحية والحكمة، وفتح عمله المزيد في كتابات الحكماء الوثنيين أكثر من أعمال المسيحيين، لهذا السبب عرفه الإنسانيون كواحد منهم (Monat, 1993, p 50).

يعد لاكتانتيوس ضمن مجموعة المرافعين المسيحيين أمثال ترتوليانوس ومينوكيوس فليكس وكبريانوس، إلا أنه طور أدلته بشكل هام. ففي "**النظم الإلهية**" يقدم أول عرض منظم باللغة اللاتينية حول العقيدة المسيحية، وتركيبه للإسهامات الكلاسيكية والمسيحية سواء بموضوعات بحث في التاريخ، الفلسفة... أو بأسلوب شيشرون قصدا، هذه محاولة للتأثير على النخبة عرفها أيضا القديسين جيروم واغسطنيوس.

رغم الطابع التقريبي لرؤيته اللاهوتية من طرف آخرين، فان عمل لاكتانتيوس كان له نجاح كبير في العصور الوسطى وخاصة عصر النهضة، مثلما يشهد على ذلك المخطوطات المحفوظة والمطبوعة منذ بداية الطباعة.

إذا نظرنا إلى "**القوانين الإلهية**" كأول تقديم منهجي للإيمان المسيحي باللغة اللاتينية، نجده أقل وأضعف من كتاب "**المبادئ**" بالإغريقية الذي وضعه اوريجانوس، فأفكار موسوعة النظم افتقرت للأسانيد والحجج اللاهوتية والعمق الروحي الصوفي. فمصادر تلك الأفكار من مجموعة استشهادات كتابية قليلة، معظمها مستل من كتاب كبريانوس المعنون بـ "**إلى كويرينوس Ad Quirinum**". وحتى عندما يتحدث عن مدافعي الإيمان المسيحي الأوائل، يذكر من يعرفهم هو مثل: مينوكيوس فليكس وترتليانوس وكبريانوس، ولا يشير قط إلى الكُتاب المسيحيين الإغريق، حتى انه لا يذكر ارنوبيوس معلمه وأستاذه.

فمن خلال موسوعة النظم استعاد لاكتانتيوس قيمة ومكانته كمؤلف ولاهوتي مسيحي في البحوث اللاهوتية والفلسفية الحديثة المتنوعة بلغات شتى

ورغم ذلك فقد احتقرها بعض النقاد الجامعيون المتخصصون في تاريخ الفكر المسيحي آنذاك، لكن مكانة لاكتانتيوس التي يستحقها استعادت في تاريخ الرسائل المسيحية إذ خصصت له مؤلفات كثيرة مترجمة (Monat, 1993, p 50) .

2.1. سيرة وأعمال القديس اورليوس أغسطينوس

1.2.1. شخصية القديس اورليوس أغسطينوس

ولد اورليوس أغسطينوس سنة 354م بمدينة تاغاست "**سوق اهراس**" بنوميديا، من أب ذو أصول محلية – لاتينية يدعى باتريس الذي حضي بمنصب هام ولم يكن غنيا واعتنق المسيحية أواخر أيامه، وأم من أصول محلية تدعى مونيكا كانت مسيحية تقية، اشتهرت في التاريخ المسيحي بالقديسة مونيكا وأيضا بإيمانها وصبرها ومن أهم أمهات العالم المسيحي. كان لها فضل كبير في تعليم وتلقين أغسطينوس التعاليم المسيحية، بعدها أصبح مواظبا على مخالطة أتباع المانويّة وحضر حلقاتهم بقرطاجة مدة سبع سنوات قبل أن يغادر إلى روما ويستقرّ بها. ثم انتقل إلى ميلانو لتدريس الخطابة أين تأثر بمذهب الشك ولكنّه تحول إلى فكر الأفلاطونيّة المحدثة واعتنق المسيحيّة سنة 386م (Saint augustin, 1963, pp 80-84) . ليعود مجدّدا إلى إفريقيا راهبا ثمّ أسقفا بمدينة هيبون سنة 396م.

في آخر حياته أصبح أغسطينوس صوفيا ناسكا، رغم اهتمامه الكبير بدراسة الفلسفة والمنطق والعلوم الإغريقية ومعارف عصره، غير أنه لم يجد في ذلك لذة ولا سعادة، بل وجد لذته في القناعة والزهد والتدين، إلى أن وافته المنية التي تزامنت مع موجة زحف وندالي على إفريقيا، لكنه لم يشهد سقوط مدينتي هيبون وقرطاجة، بعد إصابته بحمّى مفاجئة، وتوفي سنة 430م، وبذلك فقد العالم المتوسطي أحد أبرز رموز المسيحية الذي نشر ثقافتها ورفع شأنها إلى الأبد، وفقد العالم عبقريا أضاءت أنوار عبقريته حضارة الغرب المسيحي وأشعت على حضارة العالم بأسرهذ (Peter, 1971, pp 10-15).

ويعدّ أغسطينوس قديسا كبيرا ورائدا للفلسفة المسيحيّة في العصر الكنسي (طرابيشي، 2006، ص 117-120). وفكره أثر في معظم لاهوتي العصر الوسيط وبالأخص القديس توما الاكويني.. كما حاول التوفيق بين الإيمان والعقل أي بين الفلسفة واللاهوت، ما ساعد انفتاح المسيحية على الفكر الأفلاطوني.

2.2.1. التأليف والكتابة عند القديس اورليوس أغسطينوس

ألف أغسطينوس الكثير من الأعمال متمثلة في مواعظ وتأملات دينية فاقت 500 موعظة و200 رسالة، أهم مؤلفاته: الرد على الأكاديميين Contra academicos والحياة السعيدة De Beata Via والنظام De Ordine سنة 386م، حديث النفس Soliloquia وخلود النفس De Immortalitate animae والنحو De grammatical سنة 387م، مقدار النفس De quantitate animae سنة 388م، المعلم De Magistro سنة 389م، والإدارة الحرة De libero arbitrio ، سنوات 388-395م، والموسيقى 391م De musica، اعترافاتي سنوات 391-400م وهو من أهم كتب السيرة الذاتية في التاريخ وهو تحليل لتاريخه الروحي والفكري، ورواية انقلابه إلى المسيحية. وعلاقاته بأوساط الأفلاطونية المحدثة، وحاول من خلاله تحليل سيرته الروحيّة والفكريّة وتناول معضلة الشرّ.

أما أشهر مؤلفاته فهي مؤلف "**مدينة الله**" De Civitate Dei ألّفه سنوات 413-425م. حيث أوجد طريقة خاصة به في إبراز المعلومات (الترتيب، الأسلوب، الفصول، الأدلة...) ونقلها من عالم الفكر إلى عالم الوجود بواسطة تأليفه هذا الكتاب المهم الذي ذاع خبره في العالم المسيحي. كما انتقل أغسطينوس بفضله من حياة الشك إلى حياة اليقين.

3.2.1. الظروف التاريخية المؤثرة على تأليف كتاب مدينة الله

أصبحت روما أواخر القرن الرابع أوضاعها معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال، ومن النشاط والعقم الأدبي، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكري. عكس أقاليم مثل غالة في هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء، وتنازع روما في جميع الميادين، كما انتهى عهد الفتوح والغزو وبدأ عهد التقهقر والتراجع، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التي اضمحلت جراء: القحط والوباء، الضرائب الفادحة التي أضعفت الطبقات الوسطى وفرار المواطنين خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم تكن عندهم جباية الضرائب كبيرة، مخلفات الحروب، كساد التجارة الداخلية وفقدان الصناعة أسواقها، انتشار قطاع الطرق والقرصنة البحرية، عدم الرغبة في النسل فأخذ عدد السكان في النقصان، وبقيت الأراضي الصالحة للزراعة بورا لا تجد من يفلحها، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادي الذي أدى إلى اجتذاب قبائل كبرى خارج السيطرة الرومانية كانوا في أشد الحاجة إلى أراضي الإمبراطورية لغزوها...(Brown, 1971, p 22-23).

هذه الظروف والأسباب اوحت لأغسطينوس أن يؤلف كتاب "**مدينة الله**" بعد أن عايش فترة غزو الوثنيين عاصمة الإمبراطورية المسيحية روما سنة 410م، حيث انهارت أحلام الكثيرين في دولة مسيحية.

وكتاب "**مدينة الله**" هو أقدم شكل للاهوت السياسي، رغم الجذور القديمة لهذا اللاهوت. حين كانت الانفعالات في أوجها، واستوجبت أن يتحدث الناس عما يشبه يوم القيامة. وقد حمّل أغسطينوس آلهة روما الوثنية أسباب الهزيمة ورآها مسؤولة عن هذه الكارثة. فدرس تاريخ روما ومدح الأجداد العظام، ثم حلل الانحطاط الذي أصابها وعزاه إلى فساد الحاكم الذي كان سبب تدمير المدينة.

ورأى أنّ حبّ الذات المتأصّل في المدينة الأرضيّة يقود إلى انتهاك حرمة الإله وأنّ بلوغ المدينة السماويّة يستوجب احتقار الذات وتعميق حبّ الله. واعتبر أنّ حبّ الخير هو المبدأ الرئيسي والأساسي لكلّ الأخلاق.

وقبل وفاته أهدى سنة 429، كتابين أخيرين إلى مراسليه عبر البحر، أحدهما في "**القضاء والقدر الذي اصطفى القدّسين** **De praedestinatione sanctorum**"، والآخر في "**موهبة المثابرة**" De dono perseverantiae. فكانا بمثابة رسالتين أخيرتين لتشجيع وزيادة حماس المسيحيين على التسلح بالصبر والإيمان، ولشرح مغزى المحن التي زعزعت مؤسسات وأجهزة الإمبراطورية وانهيار نهائي لأجزائها الغربية بأوروبا وإفريقيا. وما كان ذلك إلا بإذن الله ومشيئته، والخالق وحده عليم بغايتها ومآلاتها، وهو الذي يهب عباده البنية الباطنية التي لا يدب إليها شك، ولا تنتابها حيرة.

4.2.1. الأفكار التي حملها كتاب مدينة الله

قسم أغسطينوس هذا المؤلف إلى 22 كتابا استعرض خلالها أفكاره وحللها، وقيمها بطريقة نقدية لحال الشعوب آنذاك. لذلك اعتبر عمله مصدرا لا يعوض لفائدته الكبيرة للإنسانية والمسيحية وما استنتجناه من ذلك:

يلوم أغسطينوس الوثنيين المساهمين في خراب العالم لكوارثهم العديدة، والتي كان آخرها تدمير روما، إضافة إلى منعهم المسيحيين من التعبير عن إيمانهم.

أيضا تحدث أغسطينوس عن البركات والأمراض التي تصيب الخيرين والأشرار ثم يوبخ في الأخير أعمال الشغب التي يقوم بها مستغلوا فقدان السلطة والقانون فيعبثون فساداً.

يستعرض أغسطينوس كوارث حصلت قبل انتشار المسيحية بسبب الإثم والرذيلة والعلاقة بآلهة كاذبة.

يتحدث أغسطينوس عن الكوارث الأخلاقية والروحية التي أصيب بها الناس بسبب التمسك بآلهة باطلة قبل المسيحية وعجزها عن إغاثتهم.

كما يثبت أن دوام الإمبراطورية لم يكن بسبب آلهة الكبرى "**جوبيتر**" أو الآلهة البقية بل بالله الواحد الحقيقي والذي بقوته تؤسس وتبقى مملكة الأرض، فما من سلطة إلا وتصدر من الله (توشار، 2010، ص 147).

يناقش أغسطينوس مذهب القدرية الذي من خلاله فسر البعض أسباب انهيار روما، فيرفض ذلك. يؤكد عدم وجود تناقض بين علم الغيب الإلهي وإرادة الإنسان الحرة. يسرد أساليب الرومان القدماء في إحلال إرادتهم بدل إرادة الله كي يزدادوا قوة وسيادة على العالم، فرفضوا الاعتراف به.

يبحث أغسطينوس في أصل المدينتين اللتين تكونتا بسبب انفصال الملائكة الأخيار عن الأشرار.

يقول أغسطينوس إن سمة المدينة الأرضية هي الخطيئة، ولكن هذه الحقيقة يجب أن تدفعنا كي نعي كوننا محدودين، لا أن نتجاوز على الآخرين، والحل هو تغليب السلام على الحرب.

يتفاءل أغسطينوس ويعتبر السلام المؤقت جيد، أكان سلام الجسد أو العلاقة مع الآخر، فحسبه يجب أولا، عدم الإساءة لأي شخص وثانيا مساعدة الآخرين، إنها أخلاق المؤمن في المدينة السماوية. وأغسطينوس هنا لا يلغي متطلبات المدينة الأرضية فحياته كحياة أي مواطن هي حياة اجتماعية ولكنه يحب الله وأخيه معا.

ميز أغسطينوس بين السلام المسيحي والسلام السياسي. الأول مملوء بالرجاء (اعتبره مثل سلام مملكة بابل) لأنه مؤقت بانتظار تحقيق أهدافه.

5.2.1. التأثير الفلسفي الاوغسطيني لكتاب "مدينة الله" على العالم المسيحي

تأثر بفلسفة أغسطينوس عدد من كبار الفلاسفة مثل توما الإكويني، جون كالفن ومارتن لوثر وغيرهم. وقد ظهر كشخصية ريادية في العالم المسيحي ما بين 354-430م، ومن جملة أفكاره المؤثرة إلى يومنا:

الخطيئة الأولى وراثية ولابد من رعاية الله حتى يتحقق الخلاص للإنسان.

الإيمان بقدسية الحياة الاجتماعية ولذلك فالدولة هامة في حياة الأفراد والمحافظة على المجتمع.

من واجبات "**الملك**" أو "**الحاكم**" أن يكون في خدمة الإله. والابتعاد عن الطغيان واستضعاف الأمم الفقيرة. فطغيان الحكام – في فكره- "**لا يبرر**" الثورة عليهم. وأن على المسيحية التركيز على المحبة وعليها أيضا أن تؤكد الطاعة للدولة. ومن هنا فإن الدعوة المسيحية التي بدأت بعيدا عن الحكم أصبحت الديانة الرئيسية للإمبراطورية والمشاركة في الحكم.

الدعوة لوحدة الكنيسة وسيطرتها على العالم المسيحي كله.

الوحي الإلهي عنده هو الذي يعطي الإنسان الحقائق.

الإيمان بازدواجية أن هناك مدينة الله ومدينة الشيطان وأن الأولى لا يمكن معرفتها إلا من خلال سلطة الكنيسة المقدسة الغير قابلة للنقاش (المدينة الوحيدة ذات القيمة هي المدينة المبنية على قيم المسيحية " **مدينة الله**" وطلب من الملوك اللجوء إلى سلطة البابا ذلك أن الخلاص لن يتم إلا عن طريق الكنيسة. كما دافع عن المسيحية ضد أعدائها.) (صبحي، 1975، ص 168).

التزاوج بين الإيمان والعقل وان يكونا جنبا إلى جنب. "**افهم كي تعتقد، واعتقد كي تفهم**". فالمنطق عند أغسطينوس أن الإيمان المسيحي لا يلغي العقل، ولا يعفيه من البحث، ولا يقتل الفكر. وهذه الأفكار الاوغسطية ألهمت فكر العصور الوسطى كثيرا (كرم، 2014، ص 30).

توحيد بين ما هو ديني وما هو يقين عقلي في فعل المعرفة، ففي فكره أنهى يمكن أن يوجد إيمان دون أن يوجد علم، ولكن لا يمكن أن يوجد علم دون إيمان. فالإيمان مصدر المعرفة ومنبع اليقين القائم على سلطة الكتاب المقدس، فوضع أوغسطين منهجه ابتداء من مقولة شهيرة: "**أعقل كي تؤمن، وآمن كي تعقل**" والتي وصفت أغسطينوس بالباحث عن العقل.

والقديس أغسطينوس من الآباء المؤسسين للفلسفة المسيحيّة، فهو من أنشأ الأفلاطونيّة المسيحيّة (Jolivet R., 1932) الّتي أثرت على الفكر المسيحيّ لقرون طويلة. والفلسفة المدرسيّة التي نشأت بشكل رسميّ في عهد شارلمان، اعتمدت كثيراً على فلسفة أغسطينوس. (كرم، 2014، ص 11) فالعصر الوسيط وقبله شهد حركة فكرية مهمة وهي حركة الفلسفة المدرسيّة. إذ لا يمكن تفسير مذاهب الفلسفة الحديثة ولا فهم مصطلحاتها دون الرّجوع إلى الفلسفة المدرسيّة التي أصلا فلسفة دينية مسيحيّة. حيث تعمل في حدود التّعاليم الأصليّة للدين (راسل، 1983، فصل 05 الحركة المدرسية ص 213-256).

وهكذا شرع البحث عن الأصل الأرسطيّ لإعادة فهمه بعيدا عن أي تأويل أجنبي له، خاصة التأويل الإسلامي الرشدي. وفي هذه المرحلة ظهر توما الأكويني مؤسس الأرسطوطاليّة المسيحيّة الّتي عارض من خلالها مذهب الأفلاطونيّة المسيحيّة التي جاء بها القديس أوغسطين.

شهد القرن الخامس الميلادي قوة السلطة البابوية وبداية محاولة أخذ زمام الأمور من السلطة الدينية وتجلى ذلك من خلال الأدوار التي قادها أغسطينوس في حياته (354م-430م)، ثم نظريته ضمن كتاب "**مدينة الله**" (413-426م) والذي استندت عليه البابوية في صراعها مع الإمبراطورية.

يعطي أغسطينوس السلطة الدينية السمو والتقدم على السلطة السياسية التي اوجب عليها إتباع تعاليم وإرشادات السلطة الدينية، لتقلل من فرص الظلم، وتساعد على زرع الفضائل، مع إقراره بالصلة بين السلطة السياسية والإرادة الإلهية التي لم تترك الأمور بلا غاية، فالله ينظم كل شي، ويضع لكل بلد النظام الذي يناسبه، وحتى الاضطرابات والأزمات تخضع لإرادته وكلمته، وهي الفكرة التي ستصبح فيما بعد مبررا لطاعة الحاكم والخضوع له حتى وإن كان ظالما.

وقد فسر أغسطينوس وجود حقبتين زمنيتين تجمع كلا المدينتين الأرضية والسماوية، الأولى من عهد قابيل أبن آدم إلى عهد إبراهيم عليه السلام وفيها كانت المدينتين مختلطتان. ثم ما بعد إبراهيم فالمدينة السماوية تمثلت باليهود، والأرضية شملت باقي الإنسانية، وكانت ذروتها الإمبراطورية الرومانية. والفاصل بين الحقبتين هو ظهور المسيح عليه السلام.

ذلك هو جوهر الفكر الأغسطيني، وهذا التضاد الأساسي بين الإيمان المسيحي الذي يتوق إلى السعادة في الجنَّة السماوية، والمثال القديم للمدينة القديمة، المكان الوحيد للحضارة والسعادة.

2. مقاربة بين أفكار كتابي لاكتانتيوس وأغسطينوس

يحتلان كل من لاكتانتيوس وأغسطينوس مركزا بين الذين كان لهم تأثير جذري في الفكر المسيحي. بل كان عقلاهما البوتقة التي انصهر فيها دين العهد الجديد مع التقليد الأفلاطوني للفلسفة اليونانية، والوسيلة التي نُقل عبرها نتاج هذا الانصهار إلى العالم المسيحي الكاثوليكي في القرون الوسطى والبروتستانتي عصر النهضة.

وتجدر الإشارة إلى الأثر الحاسم لفكر لاكتانتيوس وأوغسطين إذ كان معظم نهجيهما لاهوتيي العصر الوسيط، فارتسمت وفقه معالم الفكر عند كثير من رجال الدين المسيحيين. وبدأت مرحلة السعي للتوفيق بين والعقل والجمع بين الفلسفة واللاهوت. فأُعطي بهذا الجمع البعد العالمي للمسيحية بعد تلاقحها مع الفكر اليوناني الوثني مثل الطابع الأفلاطوني.

وإذا نظرنا الفرق بين فلسفة لاكتانتيوس وفلسفة الفلاسفة نرى لاكتانتيوس يعلن الحقيقة الإلهية غير الكاذبة، أما الفلاسفة فليس عندهم حق حقيقي، وجابه الفلاسفة الوثنيين بمنهجهم وفلسفاتهم فاستطاع ربح الكثير ممن دخلوا حظيرة الكنيسة، وهكذا قدم ل تعليما لاهوتي وفلسفي لبلوغ الحق الإلهي.

من خلال موسوعة النظم استعيدت قيمة ومكانة لاكتانتيوس في تاريخ الرسائل المسيحية في الفترة الحديثة، إذ خصصت له مؤلفات كثيرة، ومن مختلف البلدان واللغات، ونشرت وترجمت بشكل جيد في عصر النهضة وبدايات الطباعة. فالإنسانيون بمختلف مشاربهم وجدوا في أعماله المتعة والعقل في قراءتها.

أما أغسطينوس فأسس نظرية معرفية على تأسيس لاهوتي للتاريخ ; (Marrou, 1954, p196 Markus, 1988, chap, 2,3) عبر تفسيره للتاريخ حسب نظرية العناية الإلهية، أن التاريخ لديه وظيفة يؤديها فيما يخص خدمة التاريخ للعقيدة المسيحية، ومحاولة تخليصه من تراث الوثنين منذ عهد الإغريق القدامى، لكن أغلب كتاباته المعروفة ومنها "**مدينة الله**" دونت في ظروف عصيبة على الإمبراطورية الرومانية ورعاياها.

فعالجت أفكار كتاب مدينة الله دفاعا عن المسيحية واثبات عجز الوثنية على توفير السعادة للناس، وأن ما حل بروما من تخريب ودمار نتيجة لغضب الآلهة. ومدينة الله تمثل الأخلاق والعدالة والخير.. ناتجة عن حب الله لحد احتقار الذات ومدينة الأرض تمثل الشيطنة والفساد، الشهوات، الاستخفاف بالدين والأخلاق. وهي ناتجة عن حب الذات لحد احتقار الله. والمدينتان يتعايشان معا ويوجدان في نفس الفترة والفرز بينهما يكون يوم القيامة. وأن هناك ازدواجية في انتماء الإنسان إلى مدينة الله وإلى عالم الأرض. والدول الكبيرة هي منبع الظلم. (ادوارد، 1982، ص 255)، فإذا لم تكن مسيحية ستعجز عن توفير العدالة لأنه لا يعقل أن تعطي كل ذي حق حقه إذا لم تعط الله حقه.

كما تصدى من خلال كتاب مدينة الله لكل الاتهامات، والدفاع عن المسيحية عبر ذكر المدينتين:

مدينة الأرض: ممثلة بالإمبراطورية الرومانية الوثنية التي تدفع مواطنيها للتسلط والتملك.

مدينة السماء: التي تدفع مواطنيها المؤمنين إلى التماس السلام والخلاص.

والمدينتان متعايشتان منذ بدء الخليقة، لكنهما تقومان على متناقضين حب الله وحب الذات، حيث يتفوق حب الذات على حب الله في مدينة الأرض، ويتفوق حب الله على حب الذات في مدينة السماء، وما التاريخ إلا تاريخ الصراع بين المدينتين الذي ستكون الغلبة فيه في النهاية لمدينة السماء الأزلية.

كما قامت نظرية الدولة الرومانية المقدسة على أساس ما جاء في مؤلف مدينة الله، وبالتالي أثر اوغسطينوس بفكره تطبيق الأغسطينية السياسية قانون الدولة من خلال قانون الكنيسة. وبقي تأثير الفكر الأوغسطيني في الثقافة المسيحية إلى غاية القرن الثالث عشر حيث نقل طوما الاكويني الفكر الأرسطي عن ابن رشد وبدأ التحول نحو العقلانية.

إذن فكل من فكر وفلسفة لاكتانتيوس وأوغسطين هيمنا على جزء كبير من الفلسفة الوسيطة بأوروبا.

خاتمة

تنوعت خبرات وتعدد ثقافات كل من لكتانتيوس وأغسطينوس وتفردهما في استيعابهما للحقائق، من خلال كتابي "**النظم الإلهية**" و"**مدينة الله**" ما ساعدهما على الارتقاء بمستوى الإنسان الروحي والمعرفي، والارتفاع بهما لفلسفة مسيحية سماوية حقيقية غير فاسدة.

كما قدما كل من لكتانتيوس وأغسطينوس إيمانا عقائديا متكاملا في كتابيهما، وكلاهما كتبا في ضل ظروف الصراع بين الوثنية وانتشار المسيحية.

ويعتبران أيضا روادا للفلسفة المسيحيّة في العصر الكنسي وفكرهما من خلال كتابيهما أثرا بشكل بارز في لاهوتي العصر الوسيط محاولان التوفيق بين الفلسفة العقل والمنطق، وعلم اللاهوت والدين.

البيبليوغرافيا:

- أحمد محمود صبحي، (1975)، **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية.
- برتراند راسل، (1983)، **حكمة الغرب**، الجزء الأوّل، ترجمة فؤاد زكرياء، سلسلة عالم المعرفة، عدد: 62.
- جان توشار، (2010)، **تاريخ الأفكار السياسية**، ج1، ترجمة: ناجي دراوشة، دمشق، دار التكوين.
- جورج طرابيشي، (2006)، **معجم الفلاسفة**. ط.3، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ادوارد جونو، (1982)، **الفلسفة الوسيطية**، ترجمة علي زيغور بيروت، ط3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
- فهمي جورج أنطوان، (1992)، **العلامة لاكتانتيوس الفيلسوف المسيحي**، مصر، سلسلة أباء الكنيسة.
- يوسف كرم، (2014)، **تاريخ الفلسفة الأوروبيّة في العصر الوسيط**، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- Brother Alban, (1944), «**the Conscious Rôle of Lactantius**», Classical World 37. Pp 79-81.
- Brown Peter, (1971), la **vie de saint augustin**, traduit de l'anglais Jeanne Henri Marou, le seuil, paris.

Brown, Peter, (1971), **the World of Late Antiquity**, thames and Hudson, London.

- Daniel De Decker, (1970) « **Le De mortibus persecutorum attribué à Lactance** », Prolégomènes a presentation summarized in Revue Belge de Philologie et d'Histoire, 48. Pp 941-942.
- De Palma Digeser Elizabeth, (1996), **Lactantius, Constantine, and the Roman Res Publica**. Ph.D. thesis, University of California at Santa Barbara, USA.
- James Adams. N., (1989), **Five notes on Lactantius**, De mortibus Persecutorum,' Antichthon 23.
- Jeffrey Aubin, (2016), **La notion de religio dans le De ira Dei de Lactance : la Providence et la crainte de Dieu au fondement de la religion comme réponse à la philosophie épicurienne source des hérésies**, thèse Ph.D, université Laval, Québec, Canada.

- Jérôme de Stridon, (2010)، « **De uiris illustribus** » **les hommes illustres**, trad, Jacques .P. M, chap. 80.

- Jolivet R., (1932), **Saint Augustin et le néoplatonisme chrétien**, éd, Denoël et Steele, Paris.

- Markus. R.A., (1988), **Saeculum. History and society in the theology of St Augustine**, London, Cambridge university press, chapitres II et III.

- Marrou. H.I., (1955) « **La théologie de l'histoire** », **Augustinus Magister**, Congrès international augustinien, Actes III, Paris.

- Paul Allard, (1903), « **Lactance et le De mortibus persecutorum** », Revue des questions historiques, 74, N.S. 30, pp 543-552.

- Pierre Monat, (1993), **Lactance, l'homme et l'œuvre. In: Vita Latina**, N°130-131. pp 47-52.

- Saint augustin, (1963), **ouvres de saint augustin**, Paris, tr. Gafinanert : contre national de la recherche scientifique, bibliothèque augustinienne.